مجلة جامعة الزيتونة الدولية للنشر العلمي
Zaytoonah University International Journal for Scientific Publishing
Issue N.31-Vol.2 / ISSN:2958-8537

العدد الواحد والثلاثون (31)، المجلد الثاني
تاريخ 28 – 2 – 2025
(ص291 لـ ص310)

اتّجاهات صورة الفارس في شعر عنترة بن شداد

"Trends in the Image of the Knight in the Poetry of Antara Ibn Shaddad"

د. عمار عبد الرحمن إسماعيل امبدة
Ammar Abdelrahman Ismail Ambada
أستاذ الأدب والنقد المشارك- كلية اللغة العربية- جامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية.
ammanb059@gmail.com

الملخص

تناولت هذه الدراسة اتّجاهات صورة الفارس في شعر عنترة بن شداد، وهدفت إلى معرفة هذه الصور. ومن ثمّ الوقوف على أنواعها المتمثّلة في صورة الفارس المحارب، وصورة الفارس الأسير، وصورة الفارس المنقذ، وصورة الفارس المهيب، وصورة الفارس المظلوم، وصورة الفارس كريم الأخلاق، وصورة الفارس المفقود. وصورة أدوات الحرب مثل: الفرس، والسيف، والرمح. وصورة المعركة ونتائجها. اتبعت الدراسة المنهج الوصفي الاستقرائي. وخلصت الدراسة إلى عدد من النتائج من حيث مجملها: إنّ طبيعة عنترة بن شدّاد وميله إلى الحروب واشتراكه فيها حفّزه على نظم الشّعر الفروسي في ميادين القتال وتصوير الحروب، والتّعبير عن البطولة. توصي الدّراسة بمزيدٍ من الدّراسات عن شعر الفروسية في الأدب العربي.

الكلمات المفتاحية: فروسية؛ عنترة؛ صورة؛ حرب؛ معركة.

Abstract

This study dealt with the trends of the image of the knight and the accompanying image of the tools of war and the image of the battle and its results in the poetry of Antara bin Shaddad, and aimed to know these images. And then stand on the types of represented in the image of the warrior knight, the image of the captive knight, the image of the savior knight, the image of the majestic knight, the image of the oppressed knight, the image of the knight with decent morals, and the image of the lost knight. And the image of tools of war such as: The mare, the

sword, the spear. And the picture of the battle and its results. The study followed the historical and descriptive inductive approach. The study concluded with a number of results in terms of their totality: The nature of Antara bin Shaddad and his inclination to wars and his participation in them motivated him to organize chivalry poetry in the battlefields, depicting wars, and expressing heroism. The study recommends further studies on equestrian poetry in Arabic literature.

Keywords: **chivalry; antara; image; war; battle**.

مقدمة

الحمد لله الموفِّق لِكُلِّ خير، والحاثّ على كُلِّ بر، والدّال على كُلِّ فضل وإحسان. والصّلاة والسّلام على قدوتنا وحبيبنا محمد– صلَّى الله عليه وسلّم– وعلى آله وصحبه ومن والاه واهتدى بهداه إلى يوم الدّين وبعد:

لا شكّ أنّ الفروسيّة تُمثّل مظهرًا طبيعيّاً من مظاهر الحياة؛ وذلك نتيجةً لظروف طبيعيّة واجتماعيّة واقتصاديّة، ونتيجةً لما كان يشعر به الفرد من تحدّي الآخرين؛ الأمر الذي جعله يتّخذ الفروسيّة وسيلة لمقابلة هذه التّحديات. ومن هنا ارتبط مفهوم الفروسية في العصر الجاهلي بالفتوّة لما فيها صفات القوّة والشباب والجرأة والإقدام، والشّجاعة والوفاء بالوعد، إضافةً إلى معنى المروءة التي تقارب الفروسية أيضاً في الوصف والمعنى، فالفروسية مظهر من مظاهر الفتوّة، وقد اختصّ الفارس بصفات العرب جميعها، من الشجاعة والكرم وعزّة النفس، واحترام المرأة والدّفاع عن المظلومين، والصّدق، وكره الغدر، وارتبطت أيضاً بالسيادة، إذا كان للفارس مكانة كبيرة في قومه.

ومن الصفات المهمّة التي يجب أن تتوافر في الفارس إضافةً إلى قوّته الجسدية، قوّته العقلية ورجاحة عقله، وقدرته على موازنة الأمور، والقوّة في الشرف والخلق، والحلم والصبر، وكره الغدر والخديعة وكل خلق حسن يكاد يقترب فيه من الكمال، إضافةً إلى قوّته الجسدية بحيث يكون فيه ما يبعث في نفسه الهيبة وقوّة الشّخصيّة، إضافةً إلى الشّجاعة، والمقدرة الحربيّة.

وقد أذكت القبيلة والنّظام القبلي الشّعور الوطني في فرسان العصر الجاهلي ولا سيما الشّعراء، وكانت أداة كبيرة لتحفيزهم على إظهار فروسيتهم تجاهها، ويظهر ذلك كثيراً في شعر الحماسة، وهو أكثر الأغراض الشعرية التي قد يستشف منه فروسية العرب في ذلك الوقت.

ومن هنا وجدت في شعر عنترة بن شداد تمثيلاً صادقاً للفروسيّة بكلّ ضروبها، فالفروسيّة تمثّل الكثير من حياته، ولقد منحه الله سبحانه وتعالى قوّة البأس، وفصاحة القول فكان (فارساً وشاعراً).

فارس: قاتل قتال الفرسان الشّجعان، وخاض معارك كثيرة. وكان له منزلة كبيرة فيها.

شاعر: عبّر عن فروسيته تعبيراً صادقاً، من خلال وصفه للمعارك التّي خاضها، كما صوّر لحظة الضّعف وانكسار الفارس خير تصوير. ومن ثمّ تقوم الدّراسة على تحديد اتّجاهات صورة الفارس في شعر عنترة بن شدّاد. وتناول

المضامين من خلال المادة الشّعرية التّي عبّرت عن هذا الموضوع، لذلك تلجأ الدّراسة إلى المنهج الوصفي الاستقرائي. اشتملت الدّراسة على أربعة عناوين، خصّص الأوّل منها للحديث عن مفهوم الفروسيّة في الشّعر عبر العصور الأدبيّة. أمّا العنوان الثّاني: فقد تناول معرفة دوافع شعر الفروسيّة عند عنترة بن شدّاد، وقد ضمّ: (العبوديّة وعقدة اللّون، حبّه لعبلة، الحروب التّي خاضها).

وتناول العنوان الثّالث: اتّجاهات صورة الفارس في شعر عنترة بن شدّاد. مثل: (صورة الفارس المحارب، صورة الفارس الأسير، صورة الفارس المنقذ، صورة الفارس المهيب، صورة الفارس المظلوم، صورة الفارس كريم الأخلاق، صورة الفارس المفقود). وجاءت صورة أدوات الحرب مثل: (الفرس، السّيف، الرّمح). وأخيراً كانت صورة المعركة ونتائجها.

أمّا العنوان الرّابع: فقد تناول الخصائص الفنّية في شعر الفروسيّة عند عنترة بن شدّاد، وقد ضمّ: (سهولة الألفاظ، الصّدق والواقعيّة، المقارنة بين فرسان قومه وفرسان الأعداء، مزج الفروسيّة بالغزل).

مفهوم الفروسيّة في الشّعر عبر العصور الأدبيّة

جاء في معجم اللّغة العربيّة أنّ الفروسيّة هي: مصدر من الفعل (فَرُسَ). وهو فن ركوب الخيل. وقيل هي الاتّصاف بالشّجاعة والدّفاع عن الحقّ ومناهضة الضّعيف (أحمد مختار وآخرون، 169).

وعن الفروسيّة قال البروفيسر عبدالله الطيب:(بعد أن صارت مذهباً معروفاً، وأدباً محزوناً، ومنهجاً في الحياة ذا تقوّصٍ ورسوم، برز فيها رجال لم يكونوا شعراء خُلّصاً، وإنّما تعاطى من يعاطي منهم الشّعر؛ ليتم به آلة الفروسيّة ومظهرها، إذ يبدو أنّ الشّعر لطول ارتباطه بالفروسيّة قد صار يُعَدُّ من مُتَمِّمَاتِهَا، ومن شواهد ذلك ما يروى عن عنترة بن شداد: أنّه لما فخر بكمال الفروسيّة تحدّاه عائبوه بأنّه لا يقول الشّعر، واتّفق أنْ كان هو شاعر سليقة؛ فأجابهم بمعلّقته المشهورة...) (عبدالله الطيب، 855 ـ 856). لهذا يَحْتَلُّ شعر الفروسيّة مكانة عالية عند العرب، وصورة مميّزة؛ فهو لسانهم المعبّر عن حالاتهم في أفراحهم وأتراحهم، ومتعتهم المفضلة، ووسيلة التّثقيف الأولى لديهم، والسّلاح المؤثّر عن القبيلة الذي لا تقلّ فاعليته عن أدوات الحرب وفرسانها (الصميلي، 15).

وقد ارتبطت الفروسيّة بالشّعر ارتباطاً وثيقاً، لذلك تُعَدُّ عاملاً وغرضاً رئيساً في الشّعر منذ نشأته إلى عصرنا الحاضر. ومن هنا إذا نظرنا إلى الفروسيّة في العصر الجاهليّ نجد كثرة الشّعراء الفرسان، وهذه الكثرة تعود بالدّرجة الأولى إلى طبيعة الحياة؛ فحياة الجاهليين قائمة على الحروب. ولقد قرن محمد بن سلام الجُمحي كثرة الشّعر بالحروب بقوله: (وإنما كان يكثر الشّعر بالحروب التّي تكون بين الأحياء، نحو حرب الأوس والخزرج، أو قوم يغيرون ويغار عليهم. والذي قلّل شعر قريش أنه لم يكن بينهم ثائر، ولم يحاربوا، وذلك الذي قلّل شعر عمان وأهل الطائف) (الجمحي، 259).

إذاً كانت الحروب سبباً في ازدهار شعر الفروسيّة وانتشاره في الجاهليّة، وهيّأت للشّعراء المجالات الواسعة للانطلاق بمواهبهم الشّعرية بشتّى نواحيها ومختلف اتّجاهاتها، فكانت حافزاً قويّاً، ومصدراً خصباً من مصادر الإلهام، من

خلال أسبابها المختلفة كالعصبيّة القبليّة، فلقد عرف عن القبائل العربيّة التّعصب الأعمى لبعضهم البعض. يقول دريد بن الصّمة مُظهراً ذلك التّعصب لقبيلته: (ابن الصّمة، 47)

وَهَلْ أنَا إلّا مِنْ غزيّة إنْ غَوَتْ غَوَيتُ وإنْ ترشد غزيّة أرشد

وتقوم الحروب كذلك بالغارة على القبائل للاستيلاء على مواطن الماء والعشب. وطلب الأخذ بالثّأر، فمن ذلك ما حدث بين قبيلتي بكر وتغلب في حرب البسوس، التّي كان سببها مقتل (كليب بن ربيعة التّغلبي) على يد ابن عمه (جساس بن مرة)، فَجَدَّ أخو كليب وهو (المهَلْهِلْ بن ربيعة) بطلب الثّأر، ودامت الحرب بينهما أربعين سنة (ابن الأثير، 323). كلّ هذا أثار في نفوس الشّعراء مختلف الأحاسيس والعواطف، ممّا كان له أثر واضح على انتشار شعر الفروسيّة لدى شعراء الجاهليّة (القيسي، 57).

أمّا في عصر صدر الإسلام– وبعد ظهور الإسلام– تغيّرت المفاهيم، واختلفت الغايات عند هؤلاء الفرسان الشّعراء، فأصبح الجهاد شغلهم الشّاغل، وغاية حربهم هي الشّهادة في سبيل الله، حيث وجدوا طعماً لفروسيتهم؛ طعماً حلواً يقودهم إلى الجنان. كما جاء ذلك في كثيرٍ من آيات القرآن الكريم منها قوله تعالى: (فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا منهم من خلفهم ألّا خوف عليهم ولاهم يحزنون) (آل عمران: 170).

ولهذا استمرّ حب الفروسيّة عندهم مع اختلاف الدّافع وراء هذا الحب، فقد ساروا متبعين لمنهج القرآن الكريم في فروسيتهم وشعرهم، مقتدين بخير الخلق رسول الله– صلى الله عليه وسلم– الذي حَبَّبَ إليهم الجهاد ورغبهم به، وذلك بقوله: (ما من عبدٍ يموت له عند الله خيرٌ يسرّه أن يرجع إلى الدّنيا وأن له الدّنيا وما فيها، إلا الشّهيد؛ لما يرى من فضل الشّهادة، فإنّه يسرّه أن يرجع إلى الدّنيا فيقتل مرّة أخرى) (البخاري، 1029)

ولقد ترجم الشّعراء الفرسان هذا الحب في أشعارهم؛ كقول كعب بن مالك في فتح خيبر من قصيدة مطلعها: (كعب بن مالك، 196)

وَنَحْنُ وَرَدْنَا خَيبراً وفُرُضهُ بكُلِّ فتىً عَاري الأشَاجِعِ مِذْودِ

إذاً فإنّ لشعر الفروسيّة في العصرين(الجاهلي والإسلامي) حضوراً ظاهراً، كما أن للشّاعر الفارس مكانة عالية وصوتاً مسموعاً، فقد أضحى للشعر دورٌ بارزٌ في رصد الحروب والمعارك التي دارت، فالحقُّ يقال: إنه لولا شعر الحرب لما استطعنا الإلمام بجميع المعارك التّي سكت عنها المؤرخون، وتحدّث عنها الشّعراء بكلّ فخر. ولا يخفى على أحد ما قام به الشّعر من دورٍ عظيم في تخليد تلك الوقائع والحروب، وتصويرها تصويراً واقعياً حتى كثر الاستشهاد به في كتب التاريخ والمغازي (ابن الأثير، 55).

والنّاظر إلى كتب التّراجم والتّاريخ والأدب يجد عدداً غير قليل من الشّعراء الفرسان في العصر الجاهليّ، والإسلاميّ، ولكن هذا العدد أخذ يَقِلُّ تدريجياً مع مرور الزّمن، فكثرة الشّعراء الفرسان لم تَدُمْ طويلاً، حيث

بدأت أعدادهم تتضاءل في العصرين (الأُموي والعباسي) وما بعدهما من عصور، إلى أن أصبحت قِلَّتَهُمْ ظاهرة واضحة في الشّعر العربي، ولهذه القِلَّة أسباب، نحاول الوقوف على بعضٍ منها:

أولاً: البعد عن النّشأة البدويّة التّي كانت من أهم مُقوّمات الفروسية، والاتّجاه إلى المدينة وحضارتها، والانشغال بالحياة وملذّاتها؛ فإن طبيعة البيئة وطبيعة الحياة الاجتماعيّة جعلت العربي فارساً بالضّرورة؛ لأنّ الفروسيّة عنصر مهم من عناصر حياة العربي، بل تمثّل العنصر الحيوي، فتكون بذلك الفروسيّة ظاهرة طبيعيّة في حياة العربي ينشأ عليها ويعايشها طيلة حياته (فوزية بومزار، 30). ولكن مع تغير هذه الحياة تغيرت مفاهيم الفروسية لدى الشّعراء.

ثانياً: اندماج العرب بغيرهم من الأمم أضعف لديهم بعض القيم أو طمسها، فقد انبهروا بِكُلّ جديد وأظهروا له الولاء، وأهملوا كُلَّ قديم وأظهروا له البراء. الأمر الذي جعل حكم العرب بيد غيرهم بعد أن كانوا هم القُوّاد والسّادة، وبعد أن كان السّبب في رئاسة القبيلة في الفروسيّة ولا شيء غيرها؛ يقول المتنبي بعد أن أصبح أمر العرب بيد العجم: (المتنبي، 59).

وإنّما النّاسُ بالملوكِ وما تفلحُ عربٌ مُلوكهم عجمُ

لا أدب عندهم ولا حسب ولا عهود لهم ولا ذممُ

ثالثاً: تغير المفاهيم الشّعرية لدى الشّعراء، حيث أصبح الشّعر حرفة للتّكسب؛ لأنّ أغلب الشّعراء اكتفوا بالمال عن الجهاد، فأصبحت الفروسيّة عند أكثرهم رمزاً للبطولة أكثر من كونها واقعاً لا بد له من أن يخوض غمارها، واكتفى الشّاعر بالإشارة إليها في شعره بدل أن يلتمسها، فهي عندهم مُثل وقيم يلتزمون بها في أشعارهم دون الحرص على التّحلي والإمتثال بها في أرض المعركة. هذا ما أفقد شعر الفروسيّة قوّته السّابقة، وترتّب على ذلك قلّة الشّعراء الفرسان؛ لأنّ كثرتهم وقلّتهم مرتبطة بمدى التّمسك بالفروسيّة والحرص على الإمتثال بها في واقعهم قبل أشعارهم.

دوافع شعر الفروسيّة عند عنترة بن شدّاد

من المعروف أنّ الشّاعر عنترة بن شدّاد ظهرت عليه معالم البطولة والقوّة منذ حداثته، والحوادث التّي تروى عن قوّته وبطشه لا تحصى.

قيل أنّه قتل ذئباً بأن شقّ فكّيه وهو ابن العاشرة، كما روي أنّه قتل عبداً كان من أشرس الرّجال وأقواهم؛ إذ رآه يضرب عجوزاً تريد أن ترتوي من بئر، وكان في الخامسة عشر من عمره. هذا وقد وصف بأنّه كان شديد المراس والبأس مفتول العضلات ضخم الجثّة، ذا هيبة مخيفة وصوت مرعب، فإذا ما صرخ في وجه عدوّه أدخل الرّعب إلى قلبه ثم يقبض عليه بكلتا يديه ويرفعه نحو الأعلى ثم يهوي به أرضاً فيدقّ عنقه أو يُرْدِه قتيلاً (عنترة، 6).

وكان عنترة في شبابه لا يشارك قبيلته بني عبس في الغزو والقتال إلى أن حلّت بقومه ذات يوم محنة، إذ غزتهم قبيلة بني تميم على حين غرّة وسبت منهم النّساء وساقت المواشي. فاجتمع شباب بني عبس ولحقوا بالمعتدين لإنقاذ

حلالهم ونسائهم، فقال شدّاد: "كرّ يا عنترة"، فأجابه: "العبد لا يحسن الكر بل يحسن الحِلاب والصرّ" فأجابه أبوه: "كرّ وأنت حر". فاشترك عنترة في القتال لأوّل مرّة مع بني قومه، وكان في المقدّمة، وقد أبلى بلاءً حسناً في الأعداء المغيرين، بلاءً أدهش الأبطال، فكان لهجماته المدويّة على الأعداء الفضل الأوّل في استرداد السّبايا والغنائم. ومنذ ذلك اليوم صار عنترة حرًّا، وقد ألحقه أبوه بنسبه وصار مفخرة بني عبس وحامي ديارها، وسيفها البتّار الذي لا ينكسر (عنترة، 6). لذا هناك دوافع عديدة دفعت عنترة بن شدّاد إلى قول شعر الفروسيّة من أهمّها:

الدّافع الأوّل: العبوديّة وعقدة اللّون: تميّزت حياة عنترة بن شدّاد بفترتين: الفترة الأولى التّي عاشها كعبد من عبيد بني عبس، وظيفته الأساسيّة رعي الإبل وحلبها والخدمة التّي لا تجلب له إلّا الذلّ، ولكنّها مع ذلك كانت فترة تكوين في حياته فقد صقلته تلك الفترة وجعلته يتعلّم ضروب الفروسيّة وفنون القتال، كما أنّها هذّبت نفسه وصقلتها فقد كان يخلو في تلك المهامه إلى نفسه وهو يرعى الإبل وتعلّم ركوب الخيل واستعمال أدوات القتال، كما علّمته الصّبر فكانت فترة لبناء جسمه وعقله ونفسه وفروسيته، كلّ ذلك ساعده إلى قول شعر الفروسيّة وظلّ بعيداً عن حياة القبيلة وصراعاتها يراقب ما يجري حوله دون أن يتدخّل؛ لأنّ مركزه الاجتماعي لم يكن يتيح له أكثر من ذلك. ولقد أرضعته تلك الفترة لبن الحريّة على الرّغم من أغلال العبودية التّي كان يرسف فيها. فنشأ محباً لهذه الحياة كارهاً للذل ولكلّ ما يمس كرامته (عفيف عبدالرحمن، 493). وقد عاش المرحلة الثّانية من حياته يتنقّل من معركة إلى أخرى ومن نصر إلى آخر لم يعرف حياة مستقرّة. ورغم البطولات والانتصارات والتّضحيات ظلّ محتقراً بسبب ذلك من سادات قومه وشباب قبيلته (عفيف عبدالرحمن، 493).

أمّا عقدة اللّون فقد كانت دافعاً أساسياً إلى قول شعر الفروسيّة عند عنترة بن شدّاد فهو من أحد الأعراب السّود؛ لأنّ أمه حبشيّة سوداء فقد عاش الفترة الأولى مهمل بسبب تلك العقدة وناضل من أجل التّغلب على هذه العقدة فتدرّب على جميع فنون الحرب حتى أجبر والده على الحاقه بنسبه، ولكن ذلك لم يمسح هذه الصّفة من أذهان قومه ونفوسهم. وفي الأخبار يقول أبو عمر الشّيباني:" إنّ عبساً غزت تميماً وعليهم عيسى بن زهير وطلبتهم تميم بعد إن أنهزمت عبس فوقف لهم عنترة وحامى عن النّاس فلم يصب مدبر، فساء قيساً ما صنع عنترة يومئذٍ وقال حين رجع: "والله ما حمى النّاس إلاّ ابن السّوداء" (عفيف عبدالرحمن، 495).

كما كان له منافرات مع بعض فرسان القبيلة الذين رفضوا الإعتراف له بالمنزلة التي اقترسها منهم بفروسيته وشجاعته، ومنهم عمارة بن زياد العبسي الذي قال لقومه هاجياً عنترة: "إنكم أكثرتم ذكره والله لوددّت لو لقيته خالياً حتى أعلمكم أنه عبد". فقال عنترة مخاطباً عمارة بقوله: (عفيف عبدالرحمن، 502). [الوافر]

مَتى ما تَلْقني فَرْدَيْن تَرجفْ رَوانفُ أَلْيَتَيْكَ وتسْتَطارَا
وسَيفي صارمٌ قَبضتْ عليهِ أشاجعُ لا تَرى فيها انْتِشارَا

فقومه لا يعترفون به إلاّ تحت ضغط ثقيل مع أنّ عنترة كان حامي قبيلته وكان صوتها الشّعري الرائع إلاّ أنّ النّظرة إليه من قبيلته ظلّت تعذّبه وترهق نفسه، فقد ظلّت كلمة (ابن السّوداء) تلاحقه حتى وهو عائد من الحرب بالانتصار، وهو من أجل هذا تضيق نفسه حين يذكر أنّهم ينادونه في السّلم يا ابن زبيبة وفي الحرب يا ابن الأطايب، ومن هنا كان يكثر من قول شعر الفروسيّة (عبدو بدوي، 282).

الدّافع الثّاني: حبّه لعبلة: كان حبّه لعبلة دافعاً مهمّاً في قول شعر الفروسيّة؛ ذلك الحبّ الذي رأى فيه بعض الباحثين ظاهرة مرضية أخذت على الشّاعر كلّ أقطار نفسه، وهو حب كأنّه نوع من السّقم لأنّه شقى به أكثر مما سعد به، وكانت عبلة تسمعه مايكره ولم تكن تحفظ عهوده لعدم رضائها بحبّه لها ورفض قومها له وهو عبد من عبيد بني عبس. بينما يرى فيه باحث آخر طريقاً سلكه لبلوغ مآربه وهو الإرتفاع إلى مستوى أبناء السّادات الأحرار، فقد وجد المرأة العربية طريقاً يسلكه فبدأ يتغنّى بحبّه لعبلة بنت عمّه وقد فعل كلّ ذلك للتّغلب على عقدت النّقص التّي يعاني منها (عفيف عبدالرحمن، 501).

وعنترة في أشعاره يقدّم دائماً بطولته الحربيّة لمحبوبته عبلة، فيبرز لها في شعره شجاعته وفروسيته لكي ترضى به حتّى صار حبّ عبلة دافعاً مهماً يدفعه إلى قول شعر الفروسيّة (شوقي ضيف، 21). لهذا كان عنترة يتّخذ من شعر الفروسيّة ذريعة ليعلن عن نفسه وسط المحيط القاسي الذي يعيش داخله وهو يفتخر بنفسه وهو يتغرّب إلى حبيبته بدمّه المسفوح مثل قوله:

ولقد ذكرتك والرّماح نواهل مني وبيض الهند تقطر من دمي

الدّافع الثّالث: الحروب التّي خاضها: الحروب التّي خاضها عنترة بن شدّاد كثيرة ولكن من أشهرها حرب داحس والغبراء، هذه الحرب نظم فيها عنترة بن شدّاد معلّقته المشهورة وما بها من شعر فروسي ليعاتب به محبوبته عبلة، ويبيّن لها في هذه المعلّقة شجاعته وفروسيته. وكذلك يبيّن للذين لم يعترفوا بأنّه فارس وشجاع، ويذكر فيها قتل الفرسان المدجّجين الكاملين السّلاح (عمر فرّوح، 209).

فشجاعة عنترة في الحروب يضرب بها المثل؛ فقد شهد له بذلك التّاريخ كما شهد لنفسه بذلك. وروَتْ عنه الرّواة كما حدّثنا عن ذلك بشعره، فقد وضع قصائد كثيرة دالّة على شجاعته وفروسيته فهو البطل المقدام الذي لا يجد مسراته إلّا في الطّعان والكر والفر، وهو الذي يرعب قلوب الأبطال، ويذيقهم كأس الحمام، ويترك نساءهم أرامل وأولادهم أيتاماً، وعنترة يحن إلى ضرب السّيوف ويصبو إلى طعن الرّماح ويشتاق لكأس المنون، وهو بطل فريد في نوعه و واحد زمانه، وهو لا يجد سعادته إلّا تحت ظل عجاج المعارك حيث تلمع السّيوف وتطير الرّؤوس (عنترة، 8).

اتّجاهات صورة الفارس في شعر عنترة بن شدّاد

من هنا يقف الباحث على صورة الفارس وصورة أدوات الحرب وصورة المعركة ونتائجها في شعر عنترة بن شدّاد، وهي كالآتي:

صورة الفارس: يعد الشّاعر عنترة بن شدّاد من الفرسان المعدودين المبدعين في الفروسية قبل الشّعر، وهبه المولى عزّ وجل قوّة البأس وقوّة اللّسان وسلاح الحرب وسلاح القافية، فأظهر البراعة في كلتا القوّتين، فللفروسيّة حضور بارز في شعره، فهي تحتل مجموعة من القصائد في ديوانه، وهذه نتيجة طبيعية لحياة الشّاعر، فهو فارس قبل أن يكون شاعر. وأول مظاهر صورة الفارس في شعره تتجلّى في التّالي:

صورة الفارس المحارب: تمثّل صورة الفارس المحارب في شعر عنترة بن شدّاد أساس الفروسيّة ومنشئها، فمن خلاله نلتمس المعنى الحقيقي للفروسيّة، فعندما نطّلع على ديوانه نلتمس فيه صورة ذلك الفارس المحارب الذي أعدّ نفسه للقتال والمبارزة وناضل من أجل النّصر بالسّيف والرّمح. يقول: (عنترة، 72) [البسيط]

فتىً يخوضُ غِمار الحرب مبتسماً وينثَني وسِنانُ الرّمحِ مُخْتَضِبُ
إنْ سلَّ صارِمَهُ سَالتْ مَضَارِبُهُ وأشْرَقَ الجَوُّ وانْشَقّتْ له الحُجُبُ
والخيلُ تشهدُ لي أنِّي أُكَفْكِفُهَا والطّعنُ مثلُ شَرارِ النّار يلتَهِبُ
إذا التَقَيْتُ الأعادي يومَ مَعرَكَةٍ تركتُ جَمْعَهُمُ المغْرُور يُنْتَهَبُ
ليَ النّفوسُ وللطّير اللّحُومُ ولِلْ وحْشِ العظامُ وللخَيَّالةِ السَّلَبُ

فها هو عنترة بن شدّاد الفارس المحارب الذي يقتحم غمار الحروب الهائلة معتمداً على رمحه وسيفه المرهف البتّار، وتشهد له الخيل والأعداء بأنّه لا يعرف سوى الطعن والبتر والإطاحة بالرّؤوس في ساحات الوغى عند التقاء الجمعان، فلنفسه النّفوس، وللطّير اللّحوم، وللوحش العظام، وللخيّالة السّلب الذي هو كل ما يأخذ الفائز في الحرب من الخاسر، مما يكون عليه ومعه من ثياب أو سلاح أو دواب.

وهناك شواهد كثيرة دالة على بطولة الفارس المحارب عند عنترة بن شدّاد وإحرازه قصب السّبق في ميدان القتال. حيث قال عن نفسه مخاطباً محبوبته عبلة: (عنترة، 188) [الكامل]

وسَلِي الفوارسَ يُخبروكِ بهمّتي ومواقفي في الحرب حين أطاها
وأزيدها من نارِ حربي شعلةً وأُثيرُها حتّى تدورَ رَحَاهَا
وأكُرُّ فيهم في لهيب شعاعها وأكون أوّل واقدٍ بصلاها
وأكون أوّل ضاربٍ بمهنّدٍ يفري الجماجم لا يرد سواها
وأكُون أوّل فارسٍ يغشى الوغى فأقودُ أوّل فارسٍ يغشاها

ويكون في قمّة شجاعته وفروسيته عندما يفتخر أنّه يهتزُّ فرحاً وطرباً من صوت السّيوف في ساحات الوغى ولا يخاف من المهالك التي تؤدي إلى الموت، بل يكرّ على الفوارس بسيفه ورمحه ولا يخشى سيوفهم الحادّة، وهو في حياته يعشق الرّماح الحادّة، وغيره يعشق المرأة البيضا الخفيفة اللّطيفة. يقول: (عنترة، 140) [الوافر]

أنا العبدُ الذي يلقى المنايا غداةَ الرّوعِ لا يخشى المحاقا

أكُرُّ على الفوارسِ يوم حربٍ ولا أخشى المهنّدة الرِّقاقا
وتُطربني سيوفُ الهند حتّى أهيم إلى مضاربها اشْتياقا
وإني أعشقُ السُّمرَ العوالي وغيري يعشق البيض الرِّشاقا

وعلى كلّ حال نجد صورة الفارس المحارب هي أكثر الصّور وروداً في شعر عنترة بن شدّاد الفروسي.

صورة الفارس الأسير: أحب صفات الشّعر الفروسي ما امتزج فيه الفخر والحماسة بالألم والشكوى، وصادم الحزن واليأس روح البطولة والإقدام، فإنّ تضارب هذه العوامل المختلفة يخلق للشّعر جوّاً رائعاً يؤثر في النّفس ويستولي على المشاعر. (بطرس البستاني، 13.)

وقد كان لعنترة بن شدّاد نصيب كبير من هذا الألم الذي جعله يعرض صوراً مؤثّرة للفارس العاجز أو المنكسر، فالعجز والإنكسار يتمثّلان عند عنترة بن شدّاد في أسره، فقد جسّد لنا صورة الفارس الأسير أروع تجسيد في أبياته، فاستطاع أن يعرض ويوضح مفهوم الأسر بالنّسبة للفارس المجاهد المجرّب لهذا العجز الحقيقي عن الفروسيّة التّي اعتاد عليها، وذلك مثل قوله عندما أخذ أسيراً في حرب كانت بين العرب والعجم. يقول: (عنترة، 104) [الكامل]

فخر الرّجال سلاسلٌ وقيودُ وكذا النّساءُ بخانقٌ وعُقودُ
وإذا غُبارُ الخيلِ مَدّ رُواقهُ سُكْرِي بهِ لا ما جنى العنقودُ
يا دهْرُ! لا تُبْق عليَّ فقد دنا ما كنتُ أطلبُ قبلَ ذا وأريدُ
فالقتلُ لي من بعد عبلةَ راحةٌ والعيشُ بعد فراقها مَنكُودُ
يا عبلَ! قدْ دَنَتِ المنيّةُ فَاندبي إن كان جفنُكِ بالدُّموعِ يجودُ
يا عبلَ! إن تبكي عليَّ فَقَدْ بكى صَرْفُ الزَّمانِ عليَّ وهو حسودُ
يا عبلَ! إنْ سفكوا دمي ففعائلي في كلّ يومٍ ذِكْرُهُنَّ جديدُ
لهفي عليكِ إذا بقَيتِ سبيَّةً تَدْعينَ عنترَ وهو عنكِ بعيدُ
فسطا عليَّ الدّهرُ سطْوة غادرٍ والدّهر يبخلُ تارةً ويجودُ

والأبيات توضّح لنا صورة عنترة المألمة وهو في الأسر فيبدو عليه العجز والإنكسار، فتذكّر أيّامه مع عبلة التّي كانت من جملة السّبايا- وهو في سلاسل القيود- فعظم عليه الأمر وخنقته العبرة. وقال في نصٍّ آخر وهو في الأسر والسّجن عند المنذر بن ماء السّماء: (عنترة، 130) [الطّويل]

أيا صادحاتِ الأيك إنْ متُّ فاندبي على تربتي بين الطّيور السّواجعِ
ونُوحي على من ماتَ ظلماً ولم ينلْ سِوى البُعدِ عن أحبابه والفجائعِ
ويا خيلُ فابكي فارساً كان يلتقي صدور المنايا في غُبار المعامعِ
فأمسى بعيداً في غرامٍ وذلّةٍ وقيدٍ ثقيلٍ من قُيودِ التّوابعِ

وهنا يبدو على عنترة الألم والحزن وهو في الأسـر متذكراً ديار قومه وأحبابه، ومناشـداً الطّيور والخيل بالنّدب والبكاء عليه بعد موته.

صـورة الفارس المنقذ: كانت الفروسيّة مصـاحبة لعنترة بن شـدّاد حتى في إنقاذه لقومه فلم تغب عنه، ولم يتخلّ عن حمايته لقومه على الرّغم ما وقع عليه من ظلمهم، إذ نراه يرد على قيس بن زهير سـيّد عبس الذي قال فيه عندما انهزمت بنو عبس وطلبتهم بنو تميم. فوقف لهم عنترة فحامى عن النّاس، فلم يصـب مدبر. فسـاء قيس بن زهير ما صـنع عنترة يومئذ، فقال حين رجع: "والله ما حمى النّاس إلّا ابن السّـوداء". فبلغ عنترة ما قال، فقال يعرض به: (عنترة 44) [الكامل]

إنّي امرؤٌ من خير عبس مَنْصباً شطري وأحمي سائري بالمنْصُلِ
إنْ يُلحَقُوا أكْرُرْ وإنْ يُسْتَلْحَمُوا أشْدُدْ وإنْ يُلْفَوا بضنكٍ أنْزِلِ
حينَ النُّزولُ يكونُ غايةَ مِثْلِنا ويَفرُّ كلُّ مُضَلَّلٍ مُستَوْهِلِ
وإذا الكتيبةُ أحْجَمَتْ وتلاحظتْ أُلفيْتُ خيراً من مُعمٍّ مخْوِلِ
والخيلُ تعلمُ والفوارسُ أنّني فرَّقْتُ جَمْعَهُمْ بطَعْنةِ فَيصَلِ
إذْ لا أبادِرُ في المضيق فوارسي ولا أُوكَّلُ بالرّعيل الأوّلِ

وفي الأبيات يحمي قومه بسـيفه في سـاحات الوغى، فيكرّ معهم ويسـتلحم معهم بشـدّة، وإن يلفوا بضـنك ينزل معهم، ولا يكون أوّل من يهرب في أوائل الخيل، بيد أنّه يكون خلفهم ليحميهم. كما يصـف أنّه ينصر قومه ويحمي عرضهم، يقول: (عنترة، 83) [الوافر]

وإنّي اليوم أحمي عرض قومي وأنْصُرُ آل عبسَ على العُداةِ
وآخذ مالنا منهم بحربٍ تخرّ لها مُتونُ الرَّاسياتِ
وأتركُ كلّ نائحةٍ تنادي عليهم بالتّفرُّقِ والشّتاتِ

وفي نصٍّ آخر يصـف عنترة بن شـدّاد إنقاذه لإحدى نسـاء قومه من الأسـر في الحرب، وكيف صـان لها عزّتها وحريّتها– ويشـير بذلك إلى محبوبته عبلة، كأنّه يقول لها إنّه الجدير بحمايتها– حيث تمكّن من حمايتها وحفظ حياتها بعد أن حاول الأعداء أسرها، فيقول: (عنترة 51– 52) [الوافر]

ومُرْقصةٍ رددتُ الخيل عنها وقد همّتْ بإلقاءِ الزّمامِ
فقلتُ لها اقْصري منه وسيري وقد عَلِقَ الرّجائز بالخِدامِ
أكُرُّ عليهم مُهري كليماً قلائدُهُ سبائبُ كالقرامِ

صـورة الفارس المهيب: وُصِـفَ عنترة بن شـدّاد بأنّه ضـخم الجسـم إلى درجة كبيرة، قوي البنية بشـكل كبير كما كانت عظامه قويّة وصـلبة للغاية، ويقال أنّه إذا كان غاضـباً فإنّ عينيه تبدو وكأنّ هناك شـرراً ينبعث منها. هذا

وقد وُصِفَ بأنّه ذا هيبة مخيفة وصوت مرعب، فإذا ما صرخ في وجه عدوّه أدخل الرّعب إلى قلبه ثم يقبض عليه بكلتا يديه ويرفعه نحو الأعلى ثم يهوي به أرضاً فيدقّ عنقه أو يُرْدِه قتيلاً. ومن هنا صوّر لنا في شعره الفروسي صورة الفارس المهيب الذي تهابه الأبطال في ميدان القتال. فقال: (عنترة، 18) [الكامل]

وَمشَكّ سابغةٍ هَتكتُ فروجها بالسّيف عن حامي الحقيقة مُعلِمِ
لما رآني قد نزلتُ أريدُهُ أبدى نواجذه لغيرِ تبسُّمِ
فَطَعَنتُهُ بالرّمح ثم علوتُهُ بمهنّدٍ صافي الحديد مِخذَمِ
بطلٍ كأنّ ثيابه في سرحةٍ يُحذى نِعالَ السّبتِ ليس بتوأمِ

يريد بذلك أنّه لما رآه هذ الرّجل البطل الفارس العظيم قد نزل من فرسه يريد قتله كشّر عن أسنانه، وليس ذلك لتكلّمٍ ولا لتبسّمٍ وإنّما لخوفٍ من هيبة عنترة. ومن ثمّ يقول عنترة طعنته برمحي حين ألقيته من ظهر الفرس ثم علوته مع سيف مهند بتّار قاطع. وقال في نصٍّ آخر عن صورته المهيبة التّي تجعل الفارس الشّجاع يفرّ منه عندما يبصره في ساحة المعركة: (عنترة، 124) [الوافر]

أنا العبدُ الذي خُبِّرْتَ عَنهُ يُلاقي في الكريهة ألفَ حُرٍّ
خُلقتُ من الحديدِ أشدّ قلباً فكيف أخاف من بيضٍ وسُمرِ
وأبطشُ بالكميّ ولا أُبالي وأعلوا للسَّماكِ بكلّ فخرِ
وَيبصرُني الشُّجاعُ يَفرُّ منّي ويَرْعَشُ ظَهْرُهُ مني ويسري

وفي الأبيات تظهر لنا صورته المهيبة فهو الذي يلاقي في الكريهة ألف حُرّ، ويبطش بالكميّ ولا يبالي، ولا يخاف من سيفٍ ورمحٍ؛ لأنّ قلبه من حديد، وبهذه الصّورة المهيبة إذا أبصره الفارس الشّجاع في ميدان النّزال يفرّ منه ولا يستطيع مواجهته وجهاً لوجه.

وتتنّوع صورة الفارس المهيب عند عنترة بن شدّاد وذلك مثل قوله: (عنترة، 121- 122) [الكامل]

والخيلُ في وسط المضيق تبادرت نحوي كمثل العارض المتفجّرِ
من كلّ أدهم كالرّياحِ إذا جرى أو أشهبٍ عالي المطا أو أشقرِ
فصرختُ فيهم صرخة عَبْسيةً كالرّعد تدوي في قلوبِ العسكرِ
وطرحتهم فوق الصعيد كأنّهم أعجازُ نخلٍ في حضيض المحْجَرِ

وفي هذه الأبيات أحيط عنترة بن شدّاد بمجموعة من الأعداء الفرسان في ساحة المعركة، والشيء الذي أدّى إلى نجاته منهم صرخته المهيبة، فصرخ في وجههم صرخة كصوت الرّعد ممّا جعل الأعداء يتساقطون أمامه كأنهم أعجاز نخل في حضيض المحجر، أي: كلّ ما يكون حول القرية من حدائق ومزارع، وهنا يبالغ الشّاعر أيّما مبالغة.

صورة الفارس المظلوم: عرف عنترة بأنّه فارس وشاعر وكان رمز للقوّة والشّجاعة، ولعلّ ما زاد على تلك الصّفات التّي تغنّى بها العرب معاناته النّفسيّة وأزمته وحرمانه والظّلم الذي وقع عليه. ومن ثمّ تظهر معاناته في

معظم أشـــعاره الفروســـيّة التّي تعكس جميع ما مرّ به من ظلم في حياته من قبل قومه. يقول: (عنترة، 80–81) [الخفيف]

خدمتُ أناساً واتّخذتُ أقارباً لعوني ولكن أصبحُوا كالعقاربِ
يُنادونني في السّلم يا بْنَ زَبيبةٍ وعنْدَ صِدام الخيل يا بْنَ الأطايبِ
سيذكرني قومِي إذا الخيل أصبحتْ تجولُ بها الفرسانُ بين المضاربِ
فإن هم نسوني فالصّوارمُ والقنا تُذكّرهُم فعلي وَوقع مضاربِي
فيا ليتَ أنّ الدّهر يُدني أحبّتِي إليَّ كما يدني إليَّ مصائبي

هنا يشـتكي الشّـاعر من ظلم قومه اتّجاهه، فوصـف بأنّه خدمهم واتّخذهم أقارب لاعانته ولكنّهم لم يعاملوه بالمثل، فشـبّههم بالعقارب التّي لا تعترف بالوفاء فتلدغ كلّ من يمس جسـمها، ووصـف ظلمهم مرةً أخرى بأنّهم ينادونه في السّلم يا ابن زبيبة وفي الحرب عندما تحيط بهم الأعداء وتصطدم بهم يتذكّرونه وينادونه مستغيثين يا ابن الأطايب، وإن هم نسوه مرةً أخرى فالصّوارم والقنا تذكّرهم بفعله ووقائع مضاربه.

وقال عن ظلم قومه: (عنترة، 102) [الطّويل]

أُذكّرُ قومي ظلمهم لي وبَغيَهمْ وقلةَ إنصافي على القربِ والبُعدِ
بَنيتُ لهم بالسّيف مجداً مُشيّداً فلمّا تناهى مجْدُهُمْ هدموا مجدي
يعيبونَ لونِي بالسّواد وإنّما فِعالُهم بالخبثِ أسودُ من جلدِي

وفي الأبيات يتذكّر عنترة بن شدّاد ظلم قومه وبغيهم وقلّة انصافهم، فبعد أن بنا لهم مجداً مشيّداً بسيفه هدموا مجده، وأصبحوا يعيبون لونه الأسود، وهذه المعاملة السّيئة وصفها الشّاعر بالفعل الخبيث الذي هو أشدّ سواداً من سواد لونه. وفي نصٍّ آخر يخاطب عبلة شاكياً من ظلم قومها. يقول: (عنترة، 98) [الوافر]

وأُظهرُ نُصحَ قومٍ ضَيّعوني وإن خَانت قلوبهمُ الودَادا
سَلي يا عبلَ قَومَكِ عن فعالي ومنَ حضرَ الوقيعةَ والطّرادا
وَرَدتُ الحربَ والأبطالُ حولي تَهُزُّ أكُفُّها السُّمْرَ الصّعادا
وخُضْتُ بمهجتي بحرَ المنايا ونارُ الحربِ تَتَّقدُ اتّقادا
وعُدتُ مُخضَّباً بدم الأعادي وكربُ الرّكب قد خَضبَ الجوادا
ولولا صارمي وسِنانُ رمحي لما رَفعتْ بنُو عبسٍ عِمادا

وفي هذا الأبيات يوجّه عنترة بن شدّاد سؤلاً إلى محبوبته عبلة بأن تسأل قومها الذين ضيّعوه بظلمهم بعد أن رفع عمادهم بسيفه ورمحه مدافعاً عنهم ضدّ الأعداء في ساحات الوغى.

صورة الفارس الكريم الأخلاق: تحلّى عنترة بن شدّاد بخصال عدّة مثلى قلّما تجتمع في فتى من قومه. فقد كان كريم الأخلاق لا يتورّع عن زجّ نفسه في موضع الهلاك من أجل الدّفاع عن عجوز محتقرة أو يتيم مهان أو صبيّة سبيت، فقد روي أنّه قتل عبداً لمجرّد أنّه رآه يحتقر عجوزاً (عنترة، 7). ومن هنا تتعدّد صورة الفارس الكريم الأخلاق عند عنترة بن شدّاد، فأوّل ما نلحظه في هذه الصّورة العفّة عند اغتنام الأموال. حيث قال عن نفسه مخاطباً محبوبته عبلة: (عنترة، 17) [الكامل]

هلّا سألتِ الخيلَ يا ابنةَ مالكٍ إنْ كنتِ جاهلةً بما لم تعلمي

يُخبرك من شَهدَ الوقيعةَ أنني أغْشى الوغى وأعِفُّ عند المغنمِ

وفي الأبيات يوجّه سؤالاً لعبلة بقوله: هل سألت الفرسان عن حالي في قتالي، إذا كنت لا تعلمين عنها شيئاً، أو كنت تجهلين ما خطبها؟ وإن سألت الفرسان عن حالي في الحرب يخبرك من حضر الحرب بأنّي كريم عالي الهمّة آتي في الحروب وأعفّ عند اغتنام الأموال. ومثل ذلك قوله: (عنترة، 153) [الكامل]

إنّا إذا حمس الوغى نُروي القنا ونَعِفُّ عند تقاسم الأنفال

نأتي الصّريخَ على جيادٍ ضُمَّرٍ خُمْصِ البطون كأنّهنّ سَعالي

ومن صورة الفارس الكريم الأخلاق قوله: (عنترة، 44-45) [الكامل]

ولقد غدوتُ أمام رايةِ غالبٍ يومَ الهياج وما غدوت بأعزلِ

وهذه الصّورة توضّح أنّ عنترة بن شدّاد يغدو على الغالب: وهو حامل الرّاية في الحرب، ولا يغدو على الأعزل الذي لا سلاح له. ومنها- أي من صورة الفارس الكريم الأخلاق- مثل قوله: (عنترة، 59) [الكامل]

أغشى فتاة الحيّ عند حليلها وإذا غزَا في الجيش لا أغشاها

تبدو الصّورة في هذا البيت أنّ الشّاعر إذا أراد أن يغشى فتاة الحيّ يغشاها وحليلها موجود، فإذا ذهب إلى الحرب لا يدخل منزلها. وقال في صورة أخرى عن أخلاقه الكريمة: (عنترة، 143) [الكامل]

ذَلَّ الأُلى احتالوا عليَّ وأصبحوا يَتَشفَّعون بسيفيَ الفتّاكِ

فعفوتُ عن أموالهم وحريمهم وحميتُ ربع القوم مثل حماكِ

وفي الأبيات يوضّح عنترة بن شدّاد بأنّه يقبل الشّافعة من قبل الأعداء بعد انتصاره عليهم، فيعفو عن أموالهم وحريمهم.

صورة الفارس المفقود: كانت الفروسية مصاحبة لعنترة بن شدّاد حتّى في رثائه فلم تغب عنه؛ إذ نراه يرثي أحد أصدقائه وفرسان قبيلته مالك بن زهير العبسي الذي قتل في حرب داحس والغبراء. يقول: (عنترة، 54) [الطّويل]

وقد جلبَا حيناً لمصرعِ مالكٍ وكان كريماً مجاهداً لِهجانِ

وكان لدى الهيجاء يحمي ذِمارها ويطعنُ عند الكرّ كلّ طِعانِ

بهِ كنتُ أسطو حينما جَدَّتِ العدا غداة اللّقا نحوي بكلّ يماني

فقد هدّ ركني فقدُه ومصابه وخلّى فؤادي دائمَ الخَفقانِ
فوا أسفى كيف انثنى عن جوادِه وما كان سيفي عنده وسناني
رَماه بسهم الموتِ رامٍ مُصمِّمٌ فيا ليته لما رماهُ رماني
فسوف ترى إن كنت بعدك باقياً وأمكنني دهرٌ وطولُ زمانِ
وأُقسم حقاً لو بقيتَ لنظرةٍ لقرّت بها عيناك حينَ تراني

وفي الأبيات يشير الشّاعر إلى شؤم الفرسين داحس والغبراء اللّذين جلبا مصرع مالك بن زهير العبسي، فكان كريماً وفارساً مجاهداً مصاحباً لعنترة في ساحات الوغى، وبعد مصرعه تأسّف الشّاعر لفقده فتمنّى لو كان في مكانه.

صورة أدوات الحرب: شخصية الفارس البطوليّة لا تكتمل إلا بالعدّة والاستعداد للعدو، وهذا الاستعداد لا يكون إلّا بتوافر أدوات القتال التّي تقود إلى النّصر– بإذن الله–، قال تعالى: (وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوّة...) (الأنفال، 60)

فهو يحتاج إلى هذه العدّة التّي تعينه في تحقيق نصره المنشود، بالإضافة إلى أدواته المعنويّة؛ من دهاء، وذكاء، وحيلة، وصبر...لذلك جاء اهتمام الفارس بأدواته الحربيّة، فالسّلاح زاد المحارب، يدافع به عن نفسه ويرهب به عدوّه. لذا كان الشّعراء يفخرون بما يحملونه من سلاح، ويتجهزون به. ومن ثمّ نشير إلى أدوات الحرب التي يستعين بها عنترة بن شدّاد في سحات الوغى، منها:

الفَرَس: هي التي تقود الفارس إلى أرض المعركة، وتشاركه البطولة حتى أصبح لها حضوراً مميزاً في الشّعر، وخاصةً عند الشّعراء الفرسان. ولا تكتمل الصّورة البطوليّة للفارس إلّا بوجود فرسه، ذلك الفرس الذي يعدّ أحسن الحيوانات شكلاً...، وأرشد الدّواب عَدْواً وذكاءً، وله خصال حميدة، وأخلاق مرضية، وله صفاء اللّون، وحسن الصّورة، وتناسب الأعضاء، وحسن طاعته للفارس كيف شاء صرفه وانقاد له (زكريا القزويني، 400).

ولقد فضّلها المولى عز وجل إذ أقسم بها في القرآن الكريم بقوله: (والعاديات ضبحا* فالمغيرات صبحا* فالمغيرات صبحا) (العاديات، 1–3).

وقال عنها رسول الله– صلى الله عليه وسلم–:(أعرافها أدفاؤها، وأذنابها مذابها، والخير معقود في نواصيها إلى يوم القيامة) (البخاري، 136). يقول عنترة بن شدّاد متفنناً في وصفه لفرسه: (عنترة، 22–23) [الوافر]

جزى الله الأغرّ جزاءَ صِدقٍ إذا ما أوقِدت نارُ الحروبِ
يَقيني بالجَبين ومَنكِبيهِ وأنصُرُهُ بمُطَّردِ الكُعُوبِ
وأُدفِئُهُ إذا هبّتْ شمالاً بَليلاً حرجَفاً بعد الجنوبِ
أراهُ أهلَ ذلكَ حين يسعى رُعاءُ الحي في طلب الحلوب

فَيُخْفِقُ تارةً ويُفيدُ أخرى ويفجعُ ذا الضّغائنِ بالأريبِ
إذا سمن الأغرّ دنا لقاءٌ يَغصُّ الشّيخَ باللّبنِ الحليبِ
شديدُ مجالِزِ الكتِفَينِ نهدٌ به أثرُ الأسنةِ كالعُلوبِ
وأُكرِهُهُ على الأبطال حتّى يُرى كالأرجُوانيّ المِحوبِ
ألستَ بصاحبي يوم التقينا بسيفٍ وصاحبي يوم الكثيبِ

وفي الأبيات يدعو عنترة بن شـــدّاد لفرســـه الذي يعرف (بالأغر) أنّ الله يجزيه خير الجزاء إذا ما أوقدت نار الحروب، فهو الصّاحب الذي يقدّم له خدمات كثيرة- خصوصاً- عند ملاقاة الأبطال في ساحة المعركة، ويصفه بأنّه سمينٌ ضخم الكّفين.

السّـيف: السّيف من أهم أدوات الفارس، فهو الذي يدلّ على الشّـجاعة والتّلاحم بين الفرسـان، لذلك كان له نصيب كبير من شعر الفرسان، فهو المصاحب الثّاني لهم بعد الفرس. وله أسماء عديدة، منها الصّمامة، المشرفي، العَضْب، الحسام، الصارم، المنصل.....(ابن سيدة، 16). وعنترة بن شدّاد في شعره يشير إلى أهمية السّيف لدى الفارس بقوله: (عنترة، 34) [البسيط]

لا أملكُ السّيف إلّا قد ضربتُ به ولا تموت جيادي وهي أغمارُ
ولا أعوّدُ مهري أن أوقّفهُ وسط الكماة ولا يشقى بنا الجارُ
ضربتُ عمراً على الخيشومِ مقتدراً بصارمٍ مثل لون الملحِ بتّارُ

وفي هذه الأبيات يشير الشّاعر إلى أهميّة إمتلاك السّيف للفارس- خصوصاً- وسط الكماة في ميدان القتال، ومن ثمّ وصف سيفه بأنّه صارم بتّار لونه كلون الملح.

الرُّمح: يعدّ الرّمح من الأسلحة المهمّة للفارس، فبه يوجّه طعناته على الأعداء. وقد أطلق العرب عليه العديد من الأسماء، فأسموه بالخطي، والسّـمهري، والقنا، والرّديني، وغيرها من الأسماء (ابن سـيدة، 22). وعنترة بن شـدّاد شأنه كشأن غيره من الشّعراء الفرسان الذين يعتمدون على الرُّمح كسلاح فتّاك في ميدان القتال. ومن ذلك قوله: (عنترة، 30) [الطّويل]

وأطعنُ في الهيجاء إذا الخيل صدّها غداة الصّباح السّمهريُّ المقَصَّدُ

هنا يعتمد عنترة بن شدّاد على رمحه- السّمهري- الصّلب في الطّعن أثناء حربه على الأعداء.

صـورة المعركة ونتائجها: بطولة الشّـاعر الفارس لا تتجلّى بكثرة إلا في حسـم المعركة، لذا كان لوصـف المعركة نصـيبٌ وافر في شـعر عنترة بن شـدّاد. فالفارس الشّـاعر يكون له في الحرب فِعالٌ يحرص على إثباتها في شـعره؛ ليجعل منه سـجلاً تاريخياً لمعاركه ضـدّ أعدائه. ومن هنا رفع عنترة بن شـدّاد شـعار التّمرس في الحروب بقوله: (عنترة، 80) [البسيط]

خُلِقْتُ للحربِ أحميها إذا بَرَدَتْ وأصْطَلِي نارهَا في شدَّةِ اللّهبِ

بصارمٍ حَيثُما جرَّدْتُهُ سَجَدتْ لهُ جبابرَةُ الأعاجمِ والعَربِ
وقَدْ طلبتُ من العلياءِ منزلةً بصارمي لا بأُمِّي لا ولا بأبي
فَمنْ أجاب نَجَا مِمَّا يُحاذِرُهُ ومَنْ أبَى ذَاقَ طَعمَ الحربِ والحَرَبِ

ومن ثمّ وصف عنترة بن شدّاد شدّة الحرب وشراستها، وبيّن موقفه فيها، وما قام به من أدوار عظيمة كان لها نتيجة إيجابيّة ضدّ الأعداء. يقول: (عنترة، 108) [الكامل]

وتَنوفةٍ مَجْهولةٍ قد خُضتها بسنانِ رمحٍ نارهُ لم تَخْمُدِ
باكرتُها في فتيةٍ عبسيَّةٍ من كلّ أزْوعَ في الكريهة أصيدِ
وتَرى بها الرّياتِ تَخفُقُ والقنا وتَرى العجاج كمثْل بحرٍ مُزْبدِ
فهناك تنْظرُ آلُ عبسٍ مَوقفِي والخيلُ تعثُر بالوشيج الأمْلدِ
وَبوارقُ البيض الرّقاق لوامعٌ في عارض مثل الغمام المرعدِ
وذوابلُ السّمر الدّقاق كأنّها تحتَ القتام نُجومُ لَيلٍ أسودِ
وحوافر الخيل العِتاق على الصّفا مثلُ الصّواعِقِ في قِفارِ الفَدْفَدِ
باشرتُ موكبها وخُضتُ غُبارَها أطفأتُ جمر لهيبها المتوقِّدِ
وكررتُ والأبطال بين تَصادُمٍ وتَهَاجُمٍ وتَحزُّبٍ وتشدُّدِ
وفوارسُ الهيجاء بينَ مُمَانِعٍ ومُدافعٍ وَمُخادِعٍ ومُعربدِ
والبيضُ تلْمعُ والرّماحُ عَواسلٌ والقومُ بين مُجَدَّلٍ ومُقيَّدِ
ومُوسَّدٍ تحت التُّرابِ وغيرُهُ فَوقَ التُّرابِ يئنُّ غيرَ مُوسَّدِ
والجوُّ أقتَمُ والنّجومُ مُضيئةٌ والأفقُ مغْبرُّ العَنانِ الأرْبدِ
أقْحمتُ مُهْرِي تَحْتَ ظلّ عَجاجةٍ بسنان رُمْحٍ ذابلٍ ومُهنَّدِ
ورَغَّمتُ أنف الحاسِدينَ بسطْوَتِي فغَدوا لها من رَاكِعينَ وسُجَّدِ

يصف لنا عنترة بن شدّاد بعض مشاهد هذه المعركة الرّهيبة، وكيف أنه خاض لجّتها وغامر فيها؛ فالجو ممتلىء بالغبار وبالرّماح والسّيوف، والأرض بالكماة والفرسان والخيل الكريمة، والعدو في أعلى درجات التأهب، والجنود الأبطال مدجّجين بالأسلحه الفتّاكة.

وعنترة بن شدّاد في هذه المعركة هو قائد القوم وسيّدهم، وأكثرهم جرأة واستهانة بالموت وصيال العدو، والأعداء دائماً يسمعون إلى أمثاله بأنه لا يتوقف عن الغزو حتى يقطع دابر الجيش بأكمله رغم أنف الحاسدين.

الخصائص الفنيّة في شعر الفروسيّة عند عنتر بن شدّاد

النّاظر إلى شعر عنترة بن شدّاد الفروسي يجد أنّ هناك خصائص فنيّة امتاز بها وهي كالآتي:

سهولة الألفاظ: المطّلع على شعر عنترة بن شدّاد الفروسي يجد ألفاظاً سهلة غير غامضة ولا معقّدة جزيلة قويّة، فلو قست أسلوبه بأسلوب الشّعراء في زمانه لوقفت على هذه الخاصيّة. ولذلك سهل على الوضّاعين في العصور المتأخرة أن يقلّدوا شـــعره ويلحقوا ما اختلفوا بديوانه (غازي طليمات، وعرفان الأشـــقر، 423). ومن هنا نجده يصوّر نفسه لمحبوبته عبلة بألفاظٍ سلهة من خلال قوله: (عنترة، 16-17) [الكامل]

أثني عليّ بما علِمتِ فإنني سَمْحٌ مُخَالقتـي إذا لم أُظْلَمِ
وإذا ظُلِمْتُ فإنّ ظُلمي باسلٌ مرٌّ مذَاقَتـهُ كَطعـم العَلْقمِ
هلاّ سألتِ الخيل يا ابنةَ مالكٍ إن كنتِ جاهلةً بما لا تَعْلمـي
يُخبْرك من شَهدَ الوقيعَةَ أنني أغْشى الوغى وأعِفُّ عنْد المغْنمِ

صـيغت هذه الأبيات بألفاظٍ واضـحة وسـهلة حيث أنّه لا يقبل الضّـيم ولا الظّلم بأي لون من ألوانه بل لا يطيقه، وإذا ظُلم يردّ على الظّالم بظلمٍ مرير لا يبقي ولا يذر. ويتوجّه إلى صاحبته بالخطاب أنْ تسأل عنه الفرسان والأقران ليحدثوها عن شمائله وشيمه الرّفيعه، وكيف أنّه يقتحم المعارك ويصلي نارها مطيحاً برؤوس الشّجعان كأنّه القضاء النّازل، حتى إذا أخذت كتيبته تجمع الغنائم والأسلاب كفّ وأحجم وعفّ نفسه، فهو لا يحارب من أجل الغنيمة وإنّما يحارب من أجل المجد الحربي وشرفه الرّفيع.

الصّـدق والواقعيّة: كان عنترة بن شـدّاد صـادق في أفكاره صـريح في الدّعوة إلى ما يؤمن أنّه الحقّ. وهو يعبّر عن كلّ شـيء حتّى عمّا يسـوءه كحديثه عن زراية الرّجال به وإعراض النّسـاء عنه. وما نظنّه أنّه كان يجد في ذكر هذه الأمور حرجاً عظيماً وإنّما نظنّ أنّه كان يجد فيها لذّة؛ لأنّه يذكرها ليدحضـها، ويقرّ بنشـأته الأولى المتواضـعة ليفخر بما أنجز (غازي طليمات، وعرفان الأشـقر، 425). وخير مثال لهذه الخاصـيّة- الصّـدق والواقعيّة- ما ذكرناه من شعر لعنترة في صورة الفارس المظلوم.

المقارنة بين فرسان قومه وفرسان الأعداء: عقد عنترة بن شدّاد في شعره الفروسي مقارنة بين فرسان قومه وبين فرسان الأعداء، فوصف فيها قوّة قومه عند ملاقاتهم للأعداء في ميدان القتال. يقول: (عنترة، 51) [الوافر]

وخيلٍ تحْملُ الأبطالَ شُعْثاً غَداةَ الرَّوْعِ أمثال السّـهامِ
عناجيجٍ تَخُبُّ على رَحاها تُثير النّقـعَ بالموتِ الزُّؤامِ
إلـى خيلٍ مُسَوَّمةٍ عليها حُماةُ الرّوع في رَهْجِ القتـامِ
عليـها كلُّ جَبّارٍ عَنيد إلى شُرْبِ الدّماء تراهُ ظامِي
بأيديهم مُهنّـدَةٌ وسُمْرٌ كـأنّ ظُباتِها شُعَلُ الضِّرامِ
فجاؤوا عارضاً بَرْداً وجئنـا حريقاً في غَريفٍ ذِي ضِرامِ
وأُسْكِتَ كلّ صوتٍ غيرِ ضربٍ وعَثْرَسَةٍ ومَرْمِيٍّ ورامِي

وفي الأبيات يصـــور لنا أنّ الأبطال الحماة تحملهم الخيل المســـوّمة وتنطلق بهم كالسّـــهام إلى ميدان القتال، وأينما حلّوا يثيرون النّقع الذي يصـــاحبه الموت للأعداء. وعلى كلّ فرس فارس جبار متعطّش إلى شـــرب دماء الأعداء وبأيديهم السّيوف والرّماح، فجاءوا فرسان الأعداء عارضاً بارداً، وجاء عنترة وفرسان قومه بشدّةٍ وقساوةٍ وعنفٍ، كالغريف أي: الشّجر الملتف، فأسكت كلّ صوتٍ غير صوت الضّرب بالسّيوف والطّعن بالرّماح.

مزج الفروسيّة بالغزل: قال مصطفى صادق الرافي في كتابه تاريخ الأدب العربي: "كان كثير من العرب يصنعون الفروسية، وقد صارت الإجادة في ذلك على حسب قوة الشاعر وبمقدار ما تؤتي القريحة من التصرف؛ لأنّ هذا الشّـــعر لا يصـــن لرغبة ولا رهبة وليس وراء معانيه ظن، فلا يجيده إلا مجيد، ولكن شـــهرته أكثر ما تعلق بالأمراء والشّجعان وأهل النّسب. وهم يقصدون إلى هذا النّوع في شعرهم قصداً، ويتخذون منه لساناً للسّياسة والتّاريخ. يقول عنترة بن شدّاد مازجاً الفروسيّة بالغزل: (الرّافعي، 70–71)

ولقـــد ذكرتك والرمـــاح نواهـــلٌ منـي وبيض الهند تقطـــر من دمـــي

فوددتُ تقبيـــل السيـــوف لأنهـــا لمعـــت كبـارق ثغـــرِكِ المتبسمِ

وفي الأبيات يصـوّر لنا صـورة رائعة في امتزاج الفروسـيّة بالغزل واسـتثارة حب عبلة به حتّى في أحرج المواقف، والرّماح مصـوبات إليه من كلّ جانب، والسّـيوف تكاد تقضـي عليه، فذكرها لا تفارقه ولا تفارق ابتسـامتها خياله حتى ليرى ثغرها من خلال تألق السّيوف فيهم بتقبيلها.

خاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصّالحات، وأصلّي وأسلّم على النّبيّ المصطفى وعلى آله وأصحابه المستكملين الشُّرفا، وبعد:

جاءت هذه الدّراسة تحت عنوان: (اتّجاهات صورة الفارس في شعر عنترة بن شدّاد). ومن ثمّ توصل الباحث إلى عددٍ من النتائج أهمها:

1– إنّ طبيعة عنترة بن شـدّاد وميله إلى الحروب واشـتراكه فيها حفّزه على نظم الشّـعر الفروسـي في ميادين القتال وتصوير الحروب والتّعبير عن البطولة.

2– صـاحبت حياة عنترة بن شـدّاد مجموعة من الدّوافع– كما مرّ بنا في العنوان الثّاني– حيث كان لها أثر عظيم في نفسه، ممّا جعلته ينطق شعراً فيه نوع من الفروسيّة.

3– تعددّت صـورة الفارس في شـعر عنترة فكان لها حضـور بارز في شـعره، فهي تحتل مجموعة من القصـائد في ديوانه. وكذلك صـورة أدوات الحرب: من فرس، وسـيف، ورمح، حيث كان لها طابع خاص لعنترة في سـاحات الوغى، فهي التّي يدافع بها عن نفسه ويرهب بها عدوّه. أما صورة المعركة ونتائجها: بيّن فيها موقفه وما قام به من أدوار عظيمة كان لها نتيجة إيجابية ضدّ الأعداء.

4- مزج عنترة بن شدّاد شعره الفروسي بخصائص فنيّة تدلّ على مكانته الشّعرية بين كبار شعراء فرسان العرب في زمانه.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

ابن الأثير: (1980م)، الكامل في التّاريخ، (ط3، ج1)، ابن الأثير، دار الكتاب العربي، بيروت.

ابن سيدة: أبو الحسن علي، (1987م)، المخصص، (ط1، ج2)، دار الكتب العلمية، بيروت.

ابن الصّمة: دريد بن الصّمة، (1981م)، الدّيوان، (ط1)، دار صادر، بيروت.

أحمد مختار وآخرون: (2008م)، معجم اللغة العربيّة، (ط1، ج3)، عالم الكتب، بيروت.

البخاري: محمد بن إسماعيل، (1998م)، صحيح البخاري، (ط2، ج3)، دار ابن كثير، اليمامة- بيروت.

الجمحي: محمد بن سلّام، (1987م)، طبقات فحول الشعراء، (ط2، ج1)، دار الكتب العلمية، دمشق.

الرّافعي: مصطفى صادق الرافعي، (1995م)، تاريخ الأدب العربي، (ط1، ج3)، دار الكتاب العربي، دمشق.

شوقي ضيف: (1998م)، الشّعر وطوابعه الشّعبية علي مرّ الصّور، (ط2)، دار المعارف، القاهرة.

الصّميلي: حمود بن محمد، (2001م)، مفهوم الصدق في النقد القديم، (ط1)، إصدارات نادي جازان الأدبي، السّعوديّ.

عبد الله الطيب: (1970م)، المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها، (ط1، ج3)، دار الفكر، بيروت.

عبدو بدوي: (1998م)، الشّعراء السّود وخصائصهم في الشّعر الجاهلي، (ط1)، دار صادر، بيروت.

عفيف عبد الرّحمن: (1984م)، الشّعر وأيام العرب في العصر الجاهلي، (ط1)، دار الأندلس، بيروت.

عمر فرّوخ: (1999م)، تاريخ الأدب العرب، (ط1، ج1)، دار العلم للملايين، بيروت.

عنترة بن شدّاد: (2004م)، الدّيوان، (ط2)، دار المعارف، بيروت.

غازي طليمات، عرفان الأشـــقر: (1991م)، تاريخ الأدب العربي- العصـــر الجاهلي- (ط1)، مكتبة الإيمان، دمشق.

فوزيّة بومزار: (1986م)، مفهوم الفروسـيّة في التّراث العربي وأثره في فروسـية القرون الوسـطى في أوربا، (ط1)، مطابع دار الشّؤون الثّقافيّة العامة، العراق.

القزويني: زكريا القزويني، (1981م)، عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، (ط4)، دار الآفاق الجديدة، بيروت.

القيسي: نوري حمودي، (1986م)، شعر الحرب حتّى القرن الأوّل الهجري، (ط1) عالم الكتب، مكتبة النّهضة العربيّة، دمشق.

كعب بن مالك الأنصاري: (1966م)، الدّيوان، (ط1)، مطبعة المعارف، بغداد.

المتنبي: (1973م)، ديوان المتنبي، (ط1، ج4)، مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر، القاهرة.